

## الصناعات في سوريا ولبنان (١)

عند تفحصنا تاريخ النهضة الصناعية نرى انه في مبدأ الامر عندما كان النشاط البشري جدياً في مهده في العصور الاولى كان سكان الكهوف يقطعون الصوان والخشب ليضعوا اسلحة وآلات للدفاع عن انفسهم وحفظ كيانهم بل ذلك عصر تلوح امامنا الصناعة في بدء تطورها اذ نرى الانسان متفتناً يستبدل الحجارة بالمعادن ويتفنن صنع ادواته . نراه يستعمل لمصلحته وعلى اهون حال ما امدته به الطبيعة من خشب وطين وقلز وحديد . ثم نلاحظ بعد ذلك بعدة قرون التقدم البين فيها ينتجة توحيد مجهود المييد والخدم والعمال مشتركة مع الآلات والصناعات

واخيراً في اوائل العصر الحديث نرى العجائب بفضل ما قام به العلم من الاعمال الجليلة على اثر استعمال الغاز والبخار والكهرباء . وهناك فرق كبير بين المصانع الصغيرة والاكواخ الحفيرة التي يرجع عهدا الى القرون الاولى وبين المعامل العظيمة في الممالك الصناعية في هذه السنين

التقدم بين لا ريب فيه والغير العجم الناتج لا يمكن ان ينكر . والمفضل في ذلك كله للصناعة فرجل الفطرة مدين لها بان اتخذ له بديلاً عن كهفه وصومعته مسكناً قوياً ورغيداً حثيراً كان او نقياً . مدين لها اذ بعد ان كان يكسو عريه بجلد الحيوان استبدله بمخل تقيي الحر والبرد . مدين لها اذ سهلت له تمييز الطعام والشراب وحفظها صالحين شهوراً طويلة . مدين لها اذ امدته عوضاً عن الحطب وهو غير ملائم للاستنارة والاستدفاء في حماة بأجهزة وآلات أكثر أمناً واقل طائفاً . مدين لها اذ مكنته من استثمار حقله على اهون حال وزرعه على اصوب سبيل . مدين لها اذ جعلته أكثر خبرة بمحفظ مياه الجبال لادارة طواحيته وتحريك آلاته . واصلحها اصبحا بمداته بطحين ناعم وخيوط أكثر اتقاناً ومثانة . مدين لها بسهولة استكشاف تربة الارض ليعرف سر ما اختبأ في باطنها من مناجم وكنوز .

(١) محاضرة لثالثا في ١١ يناير الماضي حضرة ادمون افندي بشارة المهندس في مركز الجمعية اللبنانية السورية خريجي للدارس العليا . وشرفها عن الفرنسية حضرات محمد افندي سعيد جعوم وديشيل افندي بلدي المهندسين بمشروعات الري المصرية

مدن بتقصير المسافات لبراً وبحراً وجواً

وإلجمة فهو مدن لها بمعظم ما جرى من سعادة وثناء يتمتع بهما اليوم  
يتبين من ذلك أن الصناعة قد كان لها على المدينة واحوال كيان الانسان اليد  
الطولى فيقدر ما كانت تتقدم كانت تحول الهبة الاجتماعية الى ما فيه خيرها فهي  
بلا جدال من اقوى دماء الهبة الاجتماعية في تطورها

فالصناعة اذا لم تتقدم في بلد ما بقي حتماً متأخراً من الوجهة الاقتصادية رغمًا  
عن نجاحه في سائر فروع السمي البشري . لذلك نرى مع الاسف ان سوريا الحالية  
بلد فقير ومتأخر رغم أن ثروتها الطبيعية والروح التجارية التي تدب في صدور سكانها  
ان الصناعة عامة لم تنتشر فيها الاً يسيراً وحيثما انتشرت ما زالت في حالتها  
الاولى فالمحارث والمعاصر والطواحين والمناسج وخرابج الحجر وقطاراته والاكوار  
والمخارط والبواتق والموافد ترجع الاً القليل منها الى عهدنا في العصور الوسطى  
هذا مع ان سوريا كانت مهد قوم كانوا اسمر الصناع واقدرهم على سطح الارض .  
قصور وصيداه ودمشق تستعيد الى الذاكرة جهود انتاج صناعة عظيمة تباهي  
مثيلها في نينوى ومفيس وبيزنثه

كان الشرقيون في القرون الاولى والوسطى يبذلون كل ما اوتوا من ذكاء  
لتجميل مادة الوجود . ولقد ظهرت مدنيتهم في اشياء مادية يتلزمها تنم الحياة  
وبهاؤها . وغير خاف ان كمال هذه الاشياء ودقتها يمدان مقياساً لتقدم الام التي صنعتها  
ففي الشرق صنع ادق الآنية ونحت اجمل التماثيل ونق ابدع الالآت وطعم  
على ابدع فن . وغزل وحيك ازهى الملابس وصنع اجمل الاسلحة وقطع اعن  
الجواهر وادتها . وقطر اشذى الروائح العطرية . هنا حتماً كما يقول جوستاف  
لوبون « كان موطن الاستنارة والتقدم »

فالسوريون والفينيقيون خاصة بلغ نبوغهم في الصناعة درجة لا تقبل عنها في  
التجارة . مارسوا كل فرع من فروعها كان معروفًا لديهم . وضرربوا في كل منها  
باوفر سهم . جلبوا المواد الاولية من بلاد قاصية كانوا يتاجرون بها وصنعوها  
تبعاً لدورهم ثم قدموها ثانية باسم منتجاتهم الصناعية . وموقعهم المتوسط بين  
نينوى ومفيس كان عاملاً منشطاً وحيياً لاشغالهم ومنتجاتهم ودوايك على يد  
مصر واشور فينتقلها تجارهم

ولقد ذكرت التوراة ان الملك سليمان كان يرجع الى صناع حيرام ملك صور في اعمال النحاس والخشب والحجارة والنحاس لهيكله  
 وذكر النبي حزقيال في الاصحاح السابع والعشرين فصلاً مؤثراً عن تراء فينيقية  
 الناتج عن تجارتها ومصنوعاتها. واني لاكتفي بذكر احد الاعداد الاخيرة وهو عدد  
 ٣٣ وفيه ملخص للاصحاح

« اي صور عند خروج بضائعك من البحار اشبهت شعوباً كثيرين . بكثرة  
 ثورتك وتجارته انغيت ملوك الارض »

وذكر هوميروس في الايلاذة عن الكأس الفضية البديعة التي قدمها اثيل  
 في مأتم باتروقل قال « هذه الكأس ليس لها مثيل على الارض بجبالها انها من عمل  
 صناع فينيقية المهرة »

وقال هيرودوتس المؤرخ عن الفينيقيين انهم قوم تجارة وصناعة  
 وكان اهل صور اول من اخترع صنع الزجاج الشفاف . وقد اكتسبت معامل  
 الزجاج الفينيقية شهرة واسعة فكانت تخرج مصنوعات على غاية من الرونق والبهاء  
 وكانت صناعة الخزف المادي والمزجس ايضاً فرعاً راجحاً في صادرات فينيقية وكان  
 لها القدر الاعلى زماناً طويلاً قبل ان يجاريها الروم والارسلان . ومع ان الفينيقيين  
 ما كانوا يميلون الى الحرب فقد كانوا يالرفم من ذلك يرفرن صنع الاسلحة التي  
 اشتهرت بجبال نوعها . وقد اشتهر صناع صور بتفننهم في صنع التحف الدقيقة من  
 العاج وكانوا يستعملونها خاماً بواسطة قوافلهم او سفنهم . وتبعوا في الصياغة  
 وتتميق الجواهر . وصنعوا الاساور والاقراط والخواتم والعقود على غاية من  
 الذوق السليم وشهت في ذلك الزمان المنازل ومعامل النسيج والتطريز وصناعة  
 الصبغ الارجوانية المشهورة التي كانت مقعد ملوك جبع البلدان في تلك العصور .  
 وما زالت على مقربة من صور وصيداً تشاهد بقايا الحلازين البحرية التي كانوا  
 يستخرجون منها ذلك الصبغ الارجواني

وقد برز الفينيقيون في صناعات اخرى اهمها انشاء السفن فحملت منهم امياداً  
 متصرفين في الملاحة في جميع بحار العالم المعروفة فلما شواطئها بمصنوعاتهم  
 واستعملوا منها ما ينقص بلادهم من المواد الخام  
 فليس يستغرب ان يجد علماء الآثار في كل مكان تقريباً اثراً من هؤلاء

المستكشفين الجريئين الذين وضعوا أساس مدينة اليوفان والرومان الساطعة التي مازلنا نتعجبها حتى اليوم . ولم يقتصر تقدم فن الصناعة في سوريا على زمن الفينيقيين بل بلغ شأواً في عصر أقرب عهداً تحت حكم خلفاء بني أمية وبني العباس . ففي دمشق بفضل حماية معاوية أول حكامها أحيوا السوريون صناعتهم التي كانت قد اندثرت تحت حكم الرومان . وفي ظل معاوية ومن جاء بعده باسم خلفاء الشام تقدمت المصنوعات السورية تقدماً عظيماً وكونت لنفسها رويداً رويداً طابعاً خاصاً تحت اسم (Arabesque) أي النقوش العربية مستمدة بذلك إلى الذاكرة أصل من وضع أساسها وبناها من العدم . وقد أخذ هذا الفن الصناعي عند نشأته على شواطئ نهر بردى إلى كل مكان دخله العرب المنتصرون

أما فن العمارة الذي نشأ في سوريا فقد ترك لنا في سوريا وغيرها آثاراً عديدة قائمة إلى اليوم . فيها مسجد الأمويين في دمشق ( وكان في الأصل كنيسة مسيحية باسم القديس يوحنا ) والمسجد الأقصى في القدس وسراي محطة (Milhatha) بالقرب من معان في حوران . كل هذه من صنع البنائين السوريين الذين نشأوا في مدارس دمشق . وأنواع الأقبية الخيرية والصوفية الجميلة الفخمة التي يرجع عهدها إلى تلك العصور الوسطى كثيرة بين معروضات متاحف كل البلاد . فهذه الآثار الفنية وخصوصاً السكيخاني والعلب ( القولاذ ) الدمشقي براهين جلية على أن الصناعة كانت زاهرة في سوريا في ذلك العهد من القرون الوسطى

وعدا ذلك فإن أوروبا لم تتقدم أعمالها الصناعية إلا بعد عودة الصليبيين من غزواتهم في الشرق فهؤلاء الحاربون حملوا إلى أوطانهم عند رجوعهم مجموعة من المعلومات لاستعمالها عندهم اغترفوها من مصانع النسيج والآلات ومخازن السلاح ومعامل الانشآت التي كانت عندنا في أوج نشاطها

يلزم في الزمن الحاضر لضمان حياة صناعة وتقديمها في مملكة ما أولاً إيجاد المادة الخام ثم الأيدي العاملة والقوى المحركة لإدارة الآلات وملاحظتها بأسعار متهاودة . واخيراً أعداد منافذ ترويج هذه المصنوعات . وعدا هذه الشروط الأساسية الثلاثة يجب على أصحاب الحرف أن يوجهوا اهتمامهم دائماً لكل صغيرة من اشغال معاملهم لتخفيض أسعار مصنوطهم التي يقدمونها إلى الأسواق وعليهم أيضاً أن يدأبوا في اجادة الصنف لأن المنافسة في التجارة قد بلغت

اليوم أقصى حدودها . فكل صناعة لا تتشى مع التقدم الحديث ولا ينشئ العمل فيها على الاقتصاد مآلها إلى الخراب المحقق

وليس هناك ما يحول أن يكون لدى سوريا الآن كما في الأيام النارية صناعات عديدة نامية . فليها من المواد الأولى صنوف كثيرة . وإن كانت الأيدي العاملة اليوم أقل عدداً فعندها من الشلالات ما يعوضها عن ذلك عدداً وتقوم لها بما يلزمها من القوى المهركة

فوجود سوريا عند ابواب القارات الثلاث أوربا وآسيا وإفريقيا يجعل لها مركزاً جغرافياً ممتازاً يمكنها بسهولة من تصريف مبيعاتها بين الشعوب القريبة منها . وفضلاً عن ذلك فقد أقامت سوريا في جميع الأوقات كما سبق الذكر الدليل البين على قوة نشاطها الصناعية . ولا يستثنى من ذلك عصور الظلام والاستبداد التي في أثنائها شلت جميع مجهوداتها

وغني عن البيان أنه ليس للسوريين الآن أن يضارعوا أسلافهم في منافسة المعنوعات الأجنبية بسبب شدة التنافس الأجنبي ولكن يمكنهم على انقضاء منافسة الغير في صناعة ما تنتجها بلادهم . فسوريا بفضل مواردها الطبيعية تصنع ميداناً لصناعات متعددة وكثير منها ما هو موجود في الوقت الحاضر . ومن هذه الصناعات الموجودة ما هو مجهز تجهيزاً حديثاً على أن أكثرها لا يزال على حاله القديمة ونظراً لجهل مستخدميها فليس في مقدورهم أن يقوموا في أدائها أولاً لهم أو معنوياتهم بأي إصلاح يذكر

وعدا ذلك ينقص البلد صناعات أخرى عديدة مما يمكن تسميته بسهولة تعود على البلاد بمخدمات جليلة . ومعظم صناعاتنا تنحصر في دائرة النبات

### (١) صناعة الطحن

أهم الحاصلات النباتية في سوريا هي الحنطة تزرع في كل مكان في السهول كما في قم الجبال . وهي أخص ما يتغذى به أهل البلاد . والحبوب تحتاج يادى\* بله إلى الطحن والتنميط كي تكون صالحة للتعين ومن ذلك تتضح ضرورة الطواحين أساس صناعة الطحن

كانت هذه الطواحين أولاً قديمة وغير كبيرة مؤلفة من حجري رحى

مستديرين تمر بينهما الحبات حجرها الاسفل ثابت والاعلى متحرك يدار باليد بواسطة عمود رأسي من الخشب مثبت عليه

وكان لكل مائة في تلك العصور القديمة آلة خاصة من هذا النوع ضمن متاع البيت . فالرومان هم الذين اعادوا هذه الطواحين اليدوية التي كانوا يلقبونها « الطاحونة الطائشة » ثم استبدلوها بعد ذلك في القرن الرابع للميلاد بطواحين المياه واليوم يندر وجود هذه الطواحين الصغيرة اذ قد استبدلت بأخرى اتقل واطخم لان طحين النوع الاول كان خشناً . وهذه الطاحونة الصخرية تسمى في سوريا جاروشة وتعمل خاصة لتكسير القمح لصنع البرغل

ولما اصبح من الصعب ادارة الطواحين الحديثة باليد نظراً لثقلها الكثير فقد استخدمت قوة الحيوانات وقوة المياه لتحريكها وأقيم في غور كل واد طواحين ذات زوجين او ثلاثة ازواج من الحجارة تديرها قوة تيار النهرات وبعد ذلك انشئت طواحين تدار بالبخار اذا لم يتيسر ايجاد قوة مائية محركة ثم استبدلت الاحجار الوطنية الخشنة بأخرى اصلب وادق صنماً منها او بأسطوانات معدنية استجلبت خصيصاً من اوروبا . وضمت الى الطواحين آلات اضافية لم تكن معروفة لغلبة القمح وتصويله وتجهيزه ثم دفعه للطحن . وعلاوة على ذلك هناك مبتدعات اخرى لنخل الدقيق حتى يخرج تقيماً خالصاً من النخالة ( الردة ) والمواد الغريبة مما لا يتوفر في الطواحين الوطنية . اما عدد الطواحين المجهزة بالآلات الحديثة قليلة في سوريا ولبنان ولا يتعدى ١٢ واكبرها موجودة في بيروت يديرها محرك قوته تسعون حصاناً

ان الميدان فيج لتقدم صناعة طحن تقوم بمشكلات مليونين ونصف من السكان . فبحسن استعمال تمدد المياه يتيسر استبدال الطواحين القديمة الصغيرة بأخرى احداث نظاماً واكثر قوة وينتج عن ذلك كله نقص عام في المنصرف وازدياد مطرد في المكسب عدا الفائدة التي تمود من استهلاك صنف اقل ثمتاً واوفر كية وافضل نوعاً

وان كان تبديل الطواحين القديمة يتطلب نفقات فوق مقدور بعض اصحاب الطواحين فيسهل تدبير ما يلزمهم بالاتفاق مع البنوك المستعدة لتقديم الاموال متى ضمنت استئجارها بربح معتدل

نلاحظ الآن ان المجرى الواحد من المياه يستخدمه عادة عدد عظيم من الطواحين المتفرقة ملك فرد او جماعة فاعتقاد كل من هذه الطواحين بالاستعمال يكلف في المجموع مبلغاً باهظاً يمكن اقتصاد الكثير منه لو استبدل هذا العدد الكثير بطاحوة او اثنتين على نمط احدث المطاحن في نقط منتخبة من المجرى بحيث تلتفع بأقوى منحدراته

وتيسر القيام بهذا التجديد اذا كان المالك فرداً واحداً اما اذا كان جماعة فالمعمل قد يكون صعباً ولكن ليس بمستحيل اذ يكفي لذلك ان يتفق الملاك بمقتضى عقد ينص على حقوق كل منهم ومصالحته

وبما ان دمشق وحمص وحماه تمد اعظم الجهات انتاجاً للفلال فهناك يستحسن البدء بمشروع اول مطحنة كبيرة. وموقعها يمكن اهل الفن من التثبت من معرفة حقيقة نوع وقيمة الفلال التي تمرض عليها اما المطحنة فتقام على نهر بردى او العاصي على مقربة من الخط الحديدي لتخفيض تكاليف الانتاج والنقل

لكم فكروا في استعمال منحدر نهر بردى عند محطة « تقيّة » لهذا الغرض اما اليوم فهو يستخدم في اضاءة مدينة دمشق ومع ذلك فان مجرى النهر ابتداء من بلدة تقيّة الى قرب وادي بردى يصلح لاقامة شلال ذي قوة كافية يمكننا من انشاء مطحنة كبيرة. وشلال اليرموك في تل شهاب يمكن الانتفاع به لطحن غلال حوران

### (٢) المعجين الغذائي

انواع القمح كثيرة في سوريا واشهرها يأتي من حوران وهو ذلون احمر ومميزاته ان حبة قاسية تتكون من طحينه عجيبة لينة وهذا النوع مطلوب بكثرة في اسواق اوروبا لاسباب في ايطاليا لصنع المكرونة والشعرية والسيد والبسماط الخ صناعة هذا النوع من المعجين حديثة في سوريا ليس هناك الا معملان لها في بيروت والجال واسع لتقدم صناعته فلم لا نستفيد نحن بمميزات غلالنا بدلاً من تصديرها للاجانب وهم يبيعونها لنا ثانية بمدحجها وصنعها باسعار مرتفعة. ومما لاشك فيه ان لهذه الصناعة متسع في النجاح ومنفعة مثيلاتها من الواردات الاجنبية لانها تملك ميزة وجود المادة الاولية التي يتحتم على أوروبا شراؤها من عندنا

## (٣) صناعة النشاء

والقمح يتعمل أيضاً لصنع النشاء وهو يتخرج الآن في دمشق وحلب على الاخص وهناك ما يقرب من ثمانين مصنعاً لذلك ويستهلك النشاء المصنوع في سوريا وفلسطين ومصر للطعام وخصوصاً الحلويات اما النشاء الوارد من اوربا فيستعمل خاصة لكيّ البياضات والملابس وفي الامكان تقليد منه والمائة تستحق محاولة التجربة والاختبار

## (٤) صناعة البيرا (الجمعة)

ويتلو القمح في الاهمية مما يستهلك من انواع الفلال محصول الشمير فهو يتعمل على العموم غذاء للحيوانات الحلوب واحياناً يستعمله المزارعون بمخلط دقيقه مع دقيق القمح لصنع الخبز

والشمير لا يتعمل في سوريا في صنع شيء آخر بينما في اوربا هو اساس صناعة رابحة متوجهاً محبوب جداً ويستهلك بكثرة في البلاد الحارة تلك هي صناعة البيرا (الجمعة). واذا رجعنا الى قيود جرك بيروت قبل الحرب نجد ان ١٠٠٠٠ صندوق من زجاجات البيرة كانت ترد سنوياً. ويشتر ان يصل هذا المشروب في برازيل. وهندي ان هذا المقدار كاف لان ينبه تقوس رجال الاعمال لمكرة انشاء معامل للجمعة تعود عليهم وعلى الحكومة بالرخ الجزيل

وانشاء هذه المعامل يمكن على السواء على قمم الجبال كما في السهول. والجبال افضل لاتنا في النشاء نستطيع فيها تخزين كميات عظيمة من الواح الثلج الذي يصلح للتبريد في مصنع وحفظ الجمعة سوفاً بذلك ما يستزمة انشاء معمل تبريد من التفقات البامطة. وزيادة على ذلك لجبال سوريا بها منابع مشهورة جداً بمياهها العذبة وانا نتعير في اختيار افضلها اي اكثرها احتواء على المميزات اللازمة لصنع بيرة جيدة اذ المعروف ان قيمة البيرا تتوقف غالباً على نوع المياه المستعملة فيها فلكم حاولوا تقليد البيرة الباقارية التي تعد افضل الانواع في العالم وقلما نجحوا لان المياه المستعملة دون مياه ميونيخ من الوجبة العملية

ومما يوسف ان تحرم البلاد من رراعة حشيشة الدينار التي تعد اهم عامل في صنع البيرة بعد الشمير والمياه ولن يكون من الصعب اعماء هذا النبات عندنا وتعميده طقس وتربة سهولنا التي يفيضها نهر الليطاني وبردق والعاصي ستاتي البقية